مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ورقّاه فى مراتب البلاغة إلى مقامٍ لو اجتمعت الجن والإنس على معارضته لم يقدروا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . فسبحان من أوضح لنا به معالم الدين ، وأبان بمشارق أنواره مناهج الأدلة للمجتهدين . أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأستعينه وأستغفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، المَلِك الحق المبين . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، بملة حنيفية ، وشرعة قويمة علية ، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا مقاصد التنزيل فحصّلوه ، وأسسوا قواعده وفصّلوه ، وجالت أفكارهم فى آياته ، وأعملوا الجد فى تحقيق مبادئه وغاياته ، وعلى من اقتفى أثرهم ، ممن لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم .

أما بعد ، فإن أكرم ما تمتد إليه أعناق الهمم ، وأعظم ما تتنافس فيه الأمم ، العلم الذى هو حياة القلب ، وصحة اللب ؛ وأجلّ أصنافه وأرفعها ، وأكمل معاله وأنفعها ، هى العلوم الشرعية ، والمعارف الدينية ، إذ بها انتظام صلاح العباد ، واغتنام الفلاح فى المعاد . وعلمُ التفسير ، من بينها ، أعلاها شأنا ، وأقواها برهانا ، وأوثقها بنيانا ، وأوضحها تبيانا . فإنه مأخذها وأساسها ، وإليه يستند اقتناصها واقتباسها ، بل هو ، كما وصف به ، رئيسها وراسها . كيف لا وموضوعه ، وهو الكتاب المجيد ، كلية الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر . وإنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشىء يخالفه . فلا جرم ، لزم من رام الاطلاع على كليات الشريعة الغراء ، وطمع فى إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها النجباء ، أن يتخذه سميره وأنيسه ، ويجعله على المدى ، نظراً وعملا ، جليسه . فيوشك أن يفوز بالبغية ، ويظفر بالطِّلبة ، ويجد نفسه من السابقين ، وفى الرعيل الأول المهتدين ، ويشرق فى قلبه نور الإيقان ، وتطلع فى بصيرته

شمس العرفان ، ويتبوأ فى الدنيا والآخرة مكاناً علياً ، وتدرج النبـوة بين جنبيه وإن لم يكن نبياً .

وإنى كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيـه من الفنون ، والاكتحال بإثمد مطالبه لتنوير العيون ، فأكببت على النظر فيـه ، وشغفت بتدبر لآلئ عقوده ودراريه . وتصفحت ما قدر لى من تفاسير السابقين ، وتعرفت ، حين درست ، ما تخللها من الغث والسمين . ورأيت كلًّا ، بقدر وسعه ، حام حول مقاصده . وبمقدار طاقته ، جال فى ميدان دلائله وشواهده. وبعد أن صرفت فى الـكشف عن حقائقه شطراً من عمرى . ووقفت على الفحص عن دقائقه قدراً من دهرى . أردت أن أنخرط فى سلك مفسريه الأكابر . قبـل أن تبلى السرائر وتفنى العناصر . وأكون بخدمته موسوماً ، وفى حَمَلته منظوماً . فشحذت كليل العزم ، وأيقظت نائم الهم . واستخرت الله تعالى فى تقرير قواعده ، وتفسير مقاصده . فى كتاب اسمه بعون الله الجليـل : « محاسن التأويل » ، أودعه ما صفا من التحقيقات ، وأوشّحه بمباحث هى المهمات . وأوضح فيه خزائن الأسرار . وأنقد فيه نتائج الأفـكار ، وأسوق إليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر . وفرائد عثرت عليها فى غضون الدفاتر . وزوائد استنبطتها بفكرى القاصر . مما قادنى الدليل إليه . وقوى اعتمادى عليـه . وسيحمد السابح فى لجه ، والسانح فى حججه ، ما أودعته من نفائسه الغريبة البرهان ، وأوردته من أحاديثه الصحاح والحسان ، وبدائعه الباهرة للأذهان ، فإنها لباب اللباب ، ومهتدى أولى الألباب . ولم أُطِلْ ذيول الأبحاث بغرائب التدقيقات ، بل اخترت حسن الإيجاز فى حل المشكلات . اللهم إلا إذا قابَلَتْ فرسانَ مضمار الحق جولةُ الباطلات ، فهنالك تُصَوَّبُ أسنّةُ البراهين نحو نحور الشبهات .

ولا يخفى أن من القضايا المسلمة ، والمقدمات الضرورية ، أنه مهما تأنق الخبير فى تحبير دقائقه السميّة ، فما هو إلا كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة ، وكالـكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة ، إذ لا قدرة لأحد على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الـكتاب ، وما تضمنه من لباب اللباب ، لأنه منطو على أسرار مصونة ، وجواهر حكم مكنونة ؛ لا يكشفها

بالتحقيق إلا من اجتباه مولاه ، ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقى عن خيرته ومصطفاه .

هذا وقد حليت طليعته بتمهيد خطير ، فى مصطلح التفسير . وهى قواعد فائقة ، وفوائد شائقة ، جعلتها مفتاحاً لمغلق بابه ، ومسلكاً لتسهيل خوض عبابه ، تعين المفسر على حقائقه، وتطلعه على بعض أسراره ودقائقه .

فدونك أيهـا الباحث عن مطالب أعلى العلوم ، التائق لأسنى نتائج الفهوم ، المتعطش إلى أحلى موارده ، المنقب عن مصادر مقاصده ، ينبوعاً لمعانى الفرقان ، وعِقْداً ضَمَّ درر التبيان ، وُقِفَ بك من الطريق السابلة على الظهر ، وخطب لك عرائس الحكم ثم وُهِبَ لك المهر ، فقدِّم قَدَمَ عزمك فإذا أنت بحول الله قد وصلت، وأقبل على ما قِبَلك منه فها أنت قد فزت بما حصلت . وفارق وَهْدَ التقليد راقياً إلى يفاع الاستبصار ، وتسنّم أوج التحقيق فى مطالع الأنظار . والبس التقوى شعاراً ، والاتّصاف بالإنصاف دثاراً . واجعل طلب الحق لك نحلة ، والاعتراف به لأهله ملة . ولا ترد مشرع العصبية ، ولا تأنف من الإذعان إذا لاح وجه القضية ، أنفة ذوى النفوس المصية . فذلك مرعى لسُوَّامِها وبيل ، وصدود عن سواء السبيل .

وكان شروعى فى هذه النية الحميدة ، بعد استخارته تعالى أياماً عديدة ؛ فى العشر الأول من شوال فى الحول السادس عشر بعد الثلاثمائة وألف . نفعنا الله بما يجرى منه على يدينا ، ولا جعله حجة علينا ، ونحن نستغفر الله مما تعاطيناه من الأمر العظيم، واقتحمناه من الخطر الجسيم ، ونستعيذ به من الوقوع فى حبائل العدوّ الرجيم ، ونسأله توفيقاً يقف بنا على جادة الاستقامة ، ويصرفنا عن عمل ما يعقبه ملام أو ندامة ، ونرجو من فضله تعـالى حياة طيبة وعزماً تنحط من دونه المصاعب ، وعوناً على إكمال هـذا المأرب تبيضّ به وجوه المطالب . وهداية قدسية إلى الطريقة المثلى ، وعناية لَدُنيّة نقوى بها على تأييد كلمة الحق الفضلى ، فهو ولىّ الإنعام ، فى البدء والختام .